

المحاضرة: دور البحوث السوسولوجية في تطوير نماذج تقويمية أكثر شمولية

من إعداد الدكتورة: حميدة جرو



أولاً: مقدمة عامة

يُعدّ التقويم التربوي أحد أهم الأدوات المعتمدة في العملية التعليمية لقياس فعالية البرامج والمناهج الدراسية، ومتابعة تطور المتعلمين. إلا أن هذا التقويم كثيراً ما يتم اختزاله في قياسات كمية للنتائج المعرفية، متجاهلاً السياقات الاجتماعية والثقافية والنفسية التي تؤثر بشكل مباشر في الأداء التعليمي. وهنا تظهر الحاجة إلى إدماج البحوث السوسولوجية، التي تُمكن من تحليل الأبعاد غير المرئية للعملية التربوية، ومن اقتراح نماذج تقويمية أكثر شمولاً وعدالة.

تتجلى أهمية السوسولوجيا التربوية في تحليل التفاوتات الاجتماعية التي تنتج داخل المدرسة أو تُعاد إنتاجها من خلالها، مما يجعل من البحوث السوسولوجية أداة

محورية في تطوير ممارسات تربوية وتقييمية لا تقتصر على قياس المعرفة، بل تمتد لفهم الظروف الاجتماعية التي تحيط بها.

ثانيًا: مفهوم البحوث السوسولوجية في الحقل التربوي

تُعرف البحوث السوسولوجية بأنها دراسة علمية للعلاقات الاجتماعية، وأنماط السلوك الجماعي، والتفاعلات داخل المجتمع. وعندما يتم توجيهها إلى الميدان التربوي، تصبح وسيلة لفهم السياقات الاجتماعية المؤثرة في النظام التعليمي، مثل الطبقة الاجتماعية، والنوع الاجتماعي، والموقع الجغرافي، والبنية العائلية، والثقافة المحلية.

تهدف هذه البحوث إلى:

- كشف التفاوتات في فرص التعليم.
- فهم علاقة التلميذ بالمؤسسة التعليمية.
- تحليل تأثير البيئة الاجتماعية على التحصيل الدراسي.
- تقييم أثر السياسات التعليمية على مختلف الفئات الاجتماعية.

البحوث السوسولوجية تعتمد على أدوات مثل المقابلة، الملاحظة، تحليل الوثائق، وتحليل الإحصاءات في سياقها الاجتماعي، ما يجعلها قادرة على رصد جوانب لا تظهر في التقييمات التقليدية، مثل الدافعية، الشعور بالانتماء، أو الإقصاء الثقافي.

ثالثًا: نقد النماذج التقييمية التقليدية

تعتمد العديد من المؤسسات التعليمية على نماذج تقييمية تركز بشكل كبير على المعايير الكمية (درجات، معدلات، نتائج الامتحانات). غير أن هذه النماذج تتجاهل مجموعة من العوامل المؤثرة في أداء المتعلم، من بينها:

- الخلفية الاجتماعية والثقافية.
- الصعوبات النفسية أو البيئية.
- الفجوات التعليمية الناتجة عن التمييز أو الإقصاء.
- غياب الدعم الأسري أو المجتمعي.

التقويم الكلاسيكي، إذًا، يتسم بالسطحية في كثير من الأحيان، لأنه لا يأخذ بعين الاعتبار الديناميكيات الاجتماعية المعقدة التي تؤثر في العملية التعليمية.

رابعًا: كيف تساهم البحوث السوسولوجية في تطوير نماذج تقييمية أكثر شمولًا؟

البحوث السوسولوجية تُعيد تعريف التقويم من كونه مجرد قياس للنتائج، إلى كونه فهمًا شاملاً للظروف التي تؤثر في التعليم. ومن أبرز المساهمات التي تقدمها:

1. توسيع معايير التقييم: من خلال اقتراح مؤشرات مثل مستوى التفاعل الاجتماعي، القدرة على التعاون، المهارات الحياتية، والاندماج الثقافي.
2. العدالة والإنصاف: من خلال تطوير أدوات تقييم تراعي الفروق الفردية والاجتماعية، وتُقيّم المتعلم ضمن بيئته الخاصة بدل مقارنته بمعدلات عامة.

3. تصميم سياسات تعليمية حساسة للسياق :تقدم البحوث السوسيولوجية بيانات تُمكن صنّاع القرار من تصميم سياسات تقويمية تستجيب للفئات الهشة والمهمشة.

4. تقييم المؤسسة التربوية نفسها :فالتقويم لا يجب أن يُركز فقط على التلميذ، بل يجب أن يُقيّم مدى عدالة النظام التعليمي وكفاءة المعلمين واستجابة المناهج لحاجات المجتمع.

خامسًا: أمثلة تطبيقية

- دراسة بورديو وباسرون في كتاب "الورثة" أظهرت أن التقويمات التعليمية تُعيد إنتاج التفاوتات الطبقية لأنها تقوم على رأس مال ثقافي يملكه أبناء الطبقات العليا.
- مشروع تقويم شمولي في كندا راعى السياقات الثقافية للطلبة من الشعوب الأصلية، وغيّر طريقة طرح الأسئلة التقييمية لتكون أكثر شمولًا.
- دراسات محلية في الجزائر تشير إلى وجود فروقات كبيرة في أداء المتعلمين بين المناطق الحضرية والريفية نتيجة لغياب عدالة الفرص، وهو ما لا تكشفه اختبارات التقييم التقليدية.

سادسًا: الخلاصة

إن إعادة بناء نماذج التقويم التربوي على أسس سوسيولوجية تمكّن من تحسين جودة التعليم وتعزيز العدالة الاجتماعية داخله. هذه النماذج لا تقتصر على "كم حصل

الطالب؟"، بل تسأل "لماذا حصل على هذه النتيجة؟"، "في أي ظروف؟"، و"كيف يمكن دعمه وتحسين بيئته؟".

أسئلة للتفاعل والنقاش:

1. ما مدى واقعية تطبيق نماذج تقييمية شاملة في النظام التربوي الجزائري؟
2. كيف يمكننا إدماج أبعاد مثل الطبقة الاجتماعية أو النوع في أدوات التقييم دون الوقوع في التحيز؟
3. ما دور الباحث السوسيولوجي في مرافقة المؤسسات التعليمية في بناء تقييمات عادلة؟